المشرق

رحلة حديثة الى بلاد البادية

للدكتور لويس موسيل

كتب لنا من دمشق حضرة الدكتور لويس موسيل تريل كليتنا في هذا العام كتاباً تاريخهُ ١٧ حزيران سنة ١٨٩٨ استخلصنا منهُ ما يأتي :

«... ها قد وصلتُ والحمد لله الى دمشق قافلاً من السياحة التي كنتُ باشرتها الى البادية لاستكشاف الاماكن التي ورد ذكرها في الاسفار المقدسة. فقياماً بوعدي بادرت الى تسطير هذه الأوراق جعلتُها كمُجالة تفيدكم شيئاً من احوالي في رحلتي الاخيرة

كان سفري من غزَّة في ٢٨ اذار ونحن رهط قليلون يصحبنا الاب سليم سارينا احد كهنة طائفة اللاتين رخَّص لهُ غبطة السيد البطريرك الاورشليمي بان يرافقني ثمَّ سليمان السيَّاح احد بني الحسنات وجمَّالان من قبيلة الترابين

فكان نزولنا في مساء اليوم الاوَّل في ديار بني الحسنات عند دليلنا سليمان المذكور. وهذه القبيلة تنتسب مع العرب الوحيدات الى الحُسينية إلَّا أنهم يشتغلون بالفلاحة لا يتنقَّلون في البادية كغيرهم من العرب. وموقع منازلهم في جنوبيّ غزَّة يغلبُ على بلادهم الآثار القديمة والاخربة العظيمة وكنَّا ضربنا خيامنا بقرب امّ الجرار (Gerara) بيد أننا لم نعثر هناك على بقايا جرار خزفية كما زعم البعض. وامّ جرار هذه مدينة قديمة خطيرة سكنها الملوك لم يبقَ اليوم من آثارها سوى خمس عشرة مطمورة او منطرة كما يدعوها اهلها. وبجوار هذه المدينة يصبُّ وادي شلالة في وادي الشريعة. وللنهر ضفَّتان مرتفعتان كانهما تحتا نحتاً عموديًّا. وقد هار منهما جرفٌ في بعض المواضع فظهر بانخساف الارض أثر كبير من الفسيفساء.

وان سرت من ثمّ نحو عشرين دقيقة الى جهة الغرب وجدت على ضفّة وادي غزّة الشمالية مشهدًا (وليًّا) يدعونهُ شيخ نَبهان فيهِ كثيرٌ من العَبَد والسواري وهناك بئرٌ طمَّهُ الترابين منذ اربعين سنة. ونظنّ انّ هذه الاخربة آثار دير ام الجرار الذي ورد ذكرهُ في كتب المؤرّخين

وعند الضفّة الشمالية يبتدئ اقليم داروم القديم وهي بلاد وصفها الاقدمون بالثروة وخصب التربة فمررنا بها غربًا حتى ادّى بنا السير الى دير البلّح احد حصون الصليبيين. وقد بيّنّا في مقالة ادرجناها في مجلّتكم (ص ٢١٤) ان هذا الدير هو اوّل ما شيّدهُ القديس هيلاريون من الاديرة لمن تتلمذ لهُ من الرهبان. وقد وجدت بين آثار هذا البناء القديم ثلاث كتابات يونانية فضلًا عن كتابة رابعة نُقشت بالخطّ الكوفي

وفي ما وراء دير البلّح بقرب ساحل البحر تمتدُّ مفازة واسعة كلّها رمل فتركناها على يميننا ومِلنا الى جهة الجنوب الشرقي فجعلنا نصعد شيئًا فشيئًا على روابٍ قليلة الارتفاع لا يكاد علوّها يتجاوز ثمانين مترًا. فهناك منازل قبيلة العرب المعروفين بالحناجرة يذكرنا اسمهم بجبل حنجر (Mons Angaris) الوارد ذكرهُ في رسوم بلين الطبيعي. وفي ظهر تلك الروابي اخربةٌ من الرخام ونحيت الحجارة تعرف اليوم بسُوق مازن. ولا ريب انّ هذه بقايا مدينة سيكو مازون (Sycomazon) القديمة وكانت في سابق العهد من المدن الاسقفية

وفي غاية شهر اذار امتطيتُ الجواد لزيارة مدنٍ قديمة اتى ذكرها في اسفار العهد القديم او في التاريخ الكنسي في جملة المراكز الاسقفية. فيمّمت البلاد الواقعة في شرقي خان يونس وتلّ رَفَح. وبقرب هذا التلّ بئر بترابها عمودان من حجر الصوّان بينهما ثلاثة امتار يدلّان على الحدود الفاصلة الديار المصرية عن بلاد الشام. وترى على العمود الجاور لمصر الذي يرتقي عهدهُ الى ايّام الفراعنة كتابةً لم يتمّ حفرها يؤخذ منها انّ سموّ الخديوي الحالي وصل الى هذا المكان واقام عندهُ نحو نصف الساعة

ولمّا بارحنا تلّ رَفَح قدم علينا شيخ من الترابين كان ناويًا ان يرافقنا في كلّ مدّة سفرنا غير انّهُ تركنا لمّا بلغنا العريش

وذلك انّهُ لمّا حللنا الرحال في العريش تواردت علينا الاخبار تنبئنا انّهُ لا سبيل الى السفر لسببين احدهما قلّة امطار الربيع في تلك السنة فصارت الارض بلقعًا عجدبًا لا يمكن الماشية رعايتها فاقتضى على اهل البادية ان يرحلوا الى جهات الشمال طلبًا للمراعي. والثاني

انَّ القبائل المتعادية ركنت الى الحرب والغزو. فطلب الينا الشيخ ان نرخص له في الانحراف وابى على مثاله الجمَّالان ان يقودانا الى حيثُ قصدنا فرجعا معهُ

بيد انَّ هذه الظروف المشؤومة لم تكُ لتثني عزمنا وبعد الجهد الجهيد اتَّفقنا مع جمَّالين آخرين رضيا بان يباشرا معنا هذا السفر المخطر. فلمَّا سرنا من العريش في ٢ نيسان جعلنا سيرنا في واديهِ المتَّسع الارجاء مع قرب غورهِ وهذا الوادي تركثر فيهِ المزدرعات وكان وقت مسيرنا قد ادرك فيهِ الشعير. وعقيب ثلاث ساعات تنتهي المزارع وتبتدئ الفلاة القفرة

فما سرنا في البادية زمنًا حتى اشتدَّ علينا الحرّ وتلظَّى القيظ. وبقينا على ذلك أيامًا وأنا كان الاحد الواقع في ٣ نيسان وصلنا الى آكام من الرمل كانت خيلنا تغوص فيها الى لبانها. وكان العطش قد برَّح بنا فطلبنا الماء ولم ندركهُ الَّا بعد ستّ ساعات في جوف غورٍ فاذا بهِ ماءٌ راكد يتجمَّع من سيل الامطار. وكان لساعد الحظّ قد هطل المطر هناك منذ خمسة عشر يومًا وهي المطرة الوحيدة التي نزلت في طول هذا الشتاء. فتكوَّنت المياه في هذا الموضع فصارت كحوضٍ والعرب يدعون هذه الاحواض خَبرةً

فبادرنا الى حطّ الرحال واخذنا نصيبًا من الراحة. غير انَّ الحرّ بلغ ٤٢ درجةً في ميزان السنتيغراد ولفحنا الهواء الحارّ حتى اقتضى نصب الخيام لنتَّقي من الرمل وكانت الريح تثير بهِ علينا حتى كاد يغمرنا بتراكمهِ

ومن هذا المكان تنحدر مياه الامطار هابطةً الى جهة الغرب. وعندهُ ينتهي الرمل فتصلب الارض ويغلب عليها الحصى الصغير الاسود ويبتدئ الجبل

ثم سافرنا من عين المُرَيلح طالبين عين قُدَيس وكانت تلك المرَّة الثالثة لدخولي هذه الاصقاع وخرجت منها سائرًا في طريق لم اسلكها في سفري السابق حتَّى وصلنا الى عَبدَة. فوجدنا هناك آثارًا قديمة منها قبور ونواويس كما في وادي موسى منقوشةً بالنقوش البديعة الَّا ان الدهر قد اخفى عليها بكلكلهِ فطمس محاسنها. وحجرُها كلسيٌّ ليس عليهِ من الكتابات الَّا النزر القليل باليونانية ممَّا ليس تحتهُ كبير امر. ولمَّا كنَّا في عبدة وقع يوم جمعة الآلام فشكرت الله الذي يسَّر لي ان اقيم صلاة ذلك اليوم العظيم داخل كنيستَين قديمتين وقفتُ هناك على بقاياها الجليلة ولم يدخلهما كاهن نصرانيّ منذ اجيال كثيرة. ولم يحسن عرب

عبدة المعاملة الينا في مدّة اقامتنا عندهم وكان القُدَيرات والسراحين منهم يرصدون لنا الشرّ

فني غد ذلك اليوم وهو سبت النور اتى قوم من السراحين فاحاطوا بنا وامسكونا كاسرى. ولمّا جنّنا الليل تمكنّا من الفرار من ايديهم فلم نزل نطوي البيد واصلين السير بالسُّرَى حتى ادركنا بلاد الصعيديين وكان السراحين يتعقّبون آثارنا فنجّانا الله من كيدهم

ولمّا صرنا على مأمن من السراحين في ضُحى عيد الفصح وجّهنا سيرنا الى الجنوب الشرقيّ تاركين على مسافة يوم ونصف غربًا الطريق المطروقة المؤدية الى العقبة وتوغّلنا في وسط الجبال صاعدين الى قممها حتى بلغنا علوّ الفٍ وستة امتار. وكان ميزان الترمومتر في صباح ثاني عيد الفصح نزل الى الصفر والبرد يقرس الّا انهُ اخذ بعد قليل في الارتفاع فبلغ بعد الهاجرة الدرجة ٣٥. وكانت القبائل المعادية تقطع تلك الانحاء ذهابًا وايابًا فاضطرّنا الامر بان نأخذ حذرنا ونمشي الهوينا لئلّا يشعر بنا احد فكنّا تارةً نسير في الوهاد واخرى نستتر وراء الاعشاب وحينًا ندبُّ على ايدينا وكانت النظّارة تُطلعني على تقارب العدوّ فنميل الى اليمين او الشمال كما تقتضيهِ الحال ونحن مع ذلك نخفي آثارنا وآثار دوابّنا

فسرنا على هذا الاسلوب الى ١٤ نيسان وفيهِ وصلنا الى العقبة. والعقبة هذه قرية ليس فيها شيء يذكر وهي مركز يسكنها محافظ من الدولة العلية تحت امر والي الحجاز. والحصّن تفتك باهلها فتكًا ذريعًا وقد تحمّلنا في هذه البلدة مشقّات يطول شرحها رغمًا عمّا اظهر لنا من اللطف والانس ناظم افندي احد ضباط العسكر الهمايوني

. فرحلنا من العقبة وسرنا في وادي الاثم واذا نحن بآثار الطريق القديمة التي ابتناها الرومان وكنت رأيتُ في رحلتي السابقة منذ ستين رأس هذه الطريق لمّا سافرتُ من الكرك الى وادي موسى فتحقّقت هذه المرّة الاخيرة الامر تمامًا ولا يبقى في حقيقة هذا الاكتشاف ادنى ريب. فهذه هي الطريق التي مرَّ بها طرايانس قيصر. يدلُّ عليها ايضًا كتابات وجدناها هناك فضلًا عن حجارة كانت تُنصب في الطريق وتُرقّم عليها المسافات

ولمّا وصلنا الى منازل قبيلة العلاويين اكرم شيخهم ابو حسين محمّد بن جاد مثوانا واطلق لنا كلّ حرّيّة للبحث عن الآثار جزاهُ الله خيرًا

ثم قطعنا جبل الشراة في علوّ ١٦٥٤ مترًا وبلغنا في ١٨ نيسان مدينة مَعان ولم ألبث

ان اتفقّد البلاد الواقعة شرقيّ درب الحجّ . وفي اليوم ٢١ نيسان يمّمنا الانحاء الواقعة في الجنوب الغربي لتشخيص آثار عديدة موقعها في جبل الشراة حوالي الطريق الرومانية المذكورة آنفًا . وفي انحاء وادي موسى قرًى كثيرة كان يسكنها الناس منذ مئة سنة وهي اليوم قفرة ليس فيها ديّار

واقمنا في وادي موسى اسبوعًا كاملًا صرفت ثمّت مُعظم هذا الزمان في نسخ الكتابات الموجودة . وهذه الآثار الكتابية قليلة في نفس البلدة وفي المدافن المجاورة لها الّا انّ منها عددًا وافرًا اذا سرتَ الى الاغوار والوديان المُحيطة بالمدينة

ومع ما كابدتُهُ من العناء والمشقّات لقد اسعدني الحظّ على جمع كمّية وافرة من هذه الآثار الكتابية . ومن جملة ما تيسّر لي اكتشافهُ خطوط نبطيّة نُقشت على منعطف وادي العَرَبة في غربيهِ . وكان سيرنا من ثمّ الى فَينان ثم الى الكرك ناتجين الطريق التي سلكها المبرانيون على الرأي الشائع . وكان رفيقي الاب سليم سبقني مع الاثقال فادركتهُ في الكرك في ٢ ايّار . وفي غد ذلك النهار صرّح لي حضرتهُ انّهُ لا يستطيع ان يرافقني في بقية سفري

وفي نفس مدينة الكرك تسنّى لي بأيدهِ تعالى ان اجمع تسع كتابات يونانية . ثم سحتُ متفقّدًا البلاد الواقعة في جنوبيّ شرقيّ بحر لوط لأطّلع على مواقع المدن المذكورة في الاسفار المنزلة واتبيّن الطريق الرومانية السائرة من ثمّ الى مدينة حبرون (الخليل) . فلاحظت ان البحر الميّت لا يزال يمتدّ كلّ سنة فيغمر بمائهِ قسمًا من السواحل . اما تربة تلك الاصقاع فهي مَريعة خصبة وارضها عذبة لا اظنّ انّهُ يوجد مثلها خصبًا في كافّة فلسطين

وبعد ان عاينت بلاد ادوم ومواب شخصتُ راحلًا الى مادبا . فبلغتها وقضيت فيها عيد العنصرة

ثمّ امتطيت الهجين بعد يومين مع رجلين من بني صخر وسرنا فشرّقنا ثم طفنا في بلاد كثيرة الآثار لا يكاد يعرفها السيّاح لما يكتنف المسافرين فيها من الاخطار العديدة . وتهيّأ لي ان اكتشف ثمّت بقايا مدن وقصور جمّة . تشبه ثلاثة منها آثار قصر المشتّى (راجع المشرق ص ٤٨٣ و ٦٣٠) وقد اخذت صورها بالفوتغرافية (راجع ص ٦٣٢) . وفي كثير منها نقوش تنبئ على انّها كانت لقدماء النصارى

وكانت هذه السنة سنة جدب وقحط في هذه المقاطعة كما في جنوب الشوبك لم

يطل فيها الربيع وهي ديار لعشائر معادية لقبائل نجد والحرّ فيها شديد تبلغ درجة ميزان السنتيغراد الى الخمسين. وعليه فانّ تفقُّد هذه البادية لمن معضلات الامور لا يُدرك بعض مرامهِ الّا من احبَّ التهوُّر في الاخطار والتحكُّم في التهالك. والحقّ يُقال انّ هذه المخاطر احدقت بنا من كلّ جهة لا يسمح لي البريد بتعدادها

وكانت اقامتنا في هذه الصحارى الى اليوم العاشر من حزيران وعيشتنا كعيشة اهل البادية نقتات بالجراد ونشرب بدلًا عن صافي المياه لبانَ النوق. ولمّا لم نرَ فائدة في مواصلة السفر في تلك البلاد انثنينا راجعين الى ارمامين ثم الى الحصن ثم الى المزيريب وركبنا منها السكّة الحديدية فوصلنا الى الفيحاء فاسرعت الى رقم هذه السطور ضمّنتها لمةً يسيرة من اخبار سفرنا مع الرجاء الطيّب ان نفصّل لكم هذه الاخبار عند وصولنا الى طرفكم ودمتم

اقدم اثرٍ لبني غسّان او اخربة المُشتّى

للاب هنري لامنس اليسوعي

(تابع لما قبل)

٣

قد بقي علينا ان نثبت بادلّة راهنة وجود بني غسّان في البلقاء ونبيّن انّ تلك الانحاء ليس فقط كانت تدين لهم خاضعةً بل انّها كانت ايضًا مركزًا حلّوا به زمنًا فتركوا من بعدهم آثارًا لسكناهم. وتلك قضيّةٌ لا تخلو من بعض الصعوبة لانّ امراء غسّان جمعوا بين حياة البادية والحضر وهم مع ذلك لا يكفّون عن الغزو وشنّ الغارات

(نقول) يؤخذ من دواوين الشعراء الذين قصّدوا القصائد في مديح بني جفنة وانقطعوا الى خدمة ملوكهم لا سيّما النابغة وحسّان بن ثابت ان سكنى الغسّانيين كانت في الغالب انحاء جَولان لوقوع هذه البلاد بجوار دمشق وكانت الفيحاء وقتئذٍ دارَ ولايةٍ يسكنها عمّال ملوك الروم يلقّبون امراء البادية نيابةً عن سادتهم. وكان الغسّانيّون يجدون ايضًا في سكنى جَولان سببًا آخر حملهم على اختيارها دون سواها وهو انّ جولان كانت في وسط مملكة غسّان الممتدّة كما قلنا سابقًا من جهة الجنوب الى بحر القلزم ومن جهة الشمال الى ضفّة الفرات. وكانت